البعد الثقافي مدخل لتطوير كفايات المتعلمين بالمدرسة المغربية

الباحث عبد اللطيف أحرشاو
طالب باحث بسلك الدكتوراه مختبر التراث الثقافي والتنمية
الباحث اسماعيل مكاوي
طالب باحث بسلك الدكتوراه مختبر التواصل التطبيقي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة المغرب

ملخص الدراسة

هذه الدراسة تستعرض وتحلل العلاقة بين الثقافة والمدرسة وتأثير هذه العلاقة التفاعلية الديناميكية على المتعلم باعتباره محور العملية التعليمية التعلمية وفق ما تطرحه المقاربة بالكفايات المعتمدة في المنظومة التربوية المغربية

إن الدراسة تحاول إيجاد التقاطعات والمنطلقات والتي يمكن الاشتغال عليها وأخذها على محمل الجد لتكوين أجيال مستقبلية لها من الكفايات ما يجعلها تندمج والمحيط الخارجي ومن هنا فإن الدراسة حاولت الانطلاق من موضوع الثقافة كأحد الأبعاد المهمة في تطوير وإنماء كفايات المتعلمين بالوسط المدرسي.

الكلمات المفاتيح: الثقافة، المدرسة، الكفاية، التربية، القيم، السلوكات...

Abstract

This study highlights and analyzes the relationship between culture and school and the impact of this dynamic and interactional relationship on the learner, as he is the focus of the teaching and learning process according to what the competencies' approach proposes in the Moroccan educational system. The study attempts to find the intersections and standpoints that can be used and taken seriously to f future generations that possess competencies, allowing them to integrate with the external environment. Therefore, the study tried to start from the topic of culture as one of the important dimensions in developing and improving the competencies of learners in the school environment.

Key words: **Culture**, **School**, **Competency**, **Education**, **Values**, **Behavior**

مقدمة

تطرح قضية الثقافة وعلاقتها بالمدرسة بعضا من اللبس والغموض، كما تلقي بنا إلى ضرورة النبش والغوص في علاقتهما الديناميكية، لا سيما في كيفية استقبال المدرسة للأبعاد الروحية والأخلاقية والابداعية والفنية وتعاطيها بذلك مع هذه الأشكال الثقافية المختلفة، باعتبار المؤسسة المدرسية قناة لتصريف المضامين المذكورة سلفا، وتجاوز الفكرة النمطية لها المتمثلة في أنها مكان للتصريف المعرفي الصرف. فالمدرسة بالضرورة وجب عليها القيام بوظائفها المتعددة وليس بإعطاء أهمية لشكل ما على حساب إقصاء الأشكال الأخرى، ما يجعل من المؤسسة خيارا تاريخيا لأجل تحقيق المبتغى المنشود من وجودها، ألا وجعلها آلية للاندماج السوسيوثقافي.

إن واقع المرحلة اليوم، يقتضي بالضرورة فهم مختلف التمظهرات والأشكال والممارسات ووصفها في سياقها الثقافي عبر التاريخ، فأزمة المجتمع ليست مرتبطة بحتمية تاريخية، وإنما ترجع إلى الاستهانة بالأدوار المنوطة للمؤسسات، ووظيفتها الأساسية في ضبط توازن المجتمع والحفاظ على تركيبته البنيوية.

غني عن القول، بأن كل جيل يتبدى لنا في أسلوبه الثقافي الذي يعيش به، ويعتبره القنطرة التي يتواصل بها مع الآخر المختلف عنه، وواهم من يعتقد بأننا نعيش جمودا ثقافيا، إذ أصبح العالم اليوم كقرية صغيرة في ظل العولمة تتسرب وتنتشر فيه المثاقفة عبر الأخذ والعطاء، ولسنا في مرحلة عرفت يوما ما يسمى بالمركزية الثقافية.

إن المدرسة وجدت لصياغة كل هذه التمظهرات الثقافية والضبط العقلاني لسياق ثقافي له تناقضاته وتقاطعاته منذ الأزل، فالإنسان كما هو معروف صانع الثقافة وحاملها وناقلها من جيل إلى جيل آخر، وهو ما يحتم على الفرد أن يصبح ملزما بها ومضطر للإيمان بمعتقداتها والاعتراف بقيمتها والجدير أن المدرسة من مهامها، تبسيط هذه الثقافة وغرس روح المحافظة عليها، فعلى سبيل المثال يعتبر الحفاظ على التراث الثقافي وتجديده أحد المرتكزات الأساسية لمواجهة كل الظروف والتحديات وبالتالي الاستجابة لشروط العصر ومسايرة متطلباته.

فالثقافة ينبغي أن تتشكل وتتمأسس في إطار ونسق قيمي لأن التعلمات تحتاج إلى أرضية قيمية ثقافية، كما ينبغي أن تحضر في المنتهى لأن كل معرفة تتحول إلى ثقافة حينما تتجاوز طابعها المعرفي العلمي، ما يجعل المتعلمين تبنى لديهم صورة ذهنية تجمع بين المرجعية القيمية الخصوصية منها، والكونية وأيضا بين الثقافة العامة والثقافة العالمة.

إن مؤسسة المدرسة مطالبة بخلق مساحات ثقافية في وسطها الحي من خلال ممارسات إبداعية ذات حمولة وقيمة، منفتحة على المشترك الإنساني وعلى التاريخ الكوني، وغرس الحس النقدي في صفوف المتعلمين، بعيدا عن ثقافة هجينة ونمطية لا تعترف في قاموسها بثقافة التنوير والتسامح والمواطنة وقبول الاختلاف، ساعية إلى أدلجة المعرفة المدرسية وخلق ما يسمى اللاهوية أي "الهوية الهجين"، التي تعتبر نفسها أصيلة وطاهرة وإقصائية للإبداعات الثقافية الأخرى، إذ لا يحق لأي كان أن يجهد ثقافة ما ويبخس الثقافات الأخرى، فالبشرية في مجملها أخذ وعطاء، وفي هذا الإطار يطرح التساؤل الآتي بكل إلحاح: كيف يمكن تأهيل مدرستنا لتتمكن من تثمين وتطوير الثقافة وتعزز وحدة التراث الثقافي بتنوعه؟.

المحور الأول: المفاهيم المهيكلة للدراسة

1. مفهوم الكفاية الثقافية

تنتعش الآمال الثقافية في أي بلد يسطع فيه حضور المؤسسات الثقافية وفق سياسة متطلعة ورؤية تستمد تفاصيلها، عبر شعور وإدراك لأهمية المؤسسة الثقافية ودورها في الحياة المعاصرة. فالكفاية الثقافية ((La compétence culturelle، بمؤسسة المدرسة ليست من طبيعة معرفية أساسا، بل هي من طبيعة اجتماعية وأخلاقية ووجدانية، حيث يتحدث الكتاب الأبيض عن معالجة الكفايات الثقافية التي ينبغي أن "تشمل في شقها الرمزي توسيع دائرة إحساسات المتعلم أي (مشاعره وعواطفه وتصوراته) والتي يبدو أنها تستعمل هنا، بمعنى المواقف والاتجاهات أي مجال القيم ورؤيته للعالم وللحضارة البشرية وبترسيخ هويته كمواطن وكإنسان منسجم مع ذاته ومع بيئته ومع العالم"1. غير أن الإشارة الضرورية هنا لتأكيد الكفاية الثقافية بالوسط المدرسي وجب أن توجه للمجتمع برمته، و بعيدا عن التقسيمات التي تختزل الفعل الثقافي في شكل أو نمط أو صورة، أو لا تعترف إلا بهذا ولا يعنيها ذاك، وحسب تعريف الخبير التربوي محمد الدريج فالكفاية الثقافية هي "مجموعة من المعارف والمهارات والاتجاهات المكتسبة والمندمجة بشكل مركب، والتي يقوم الفرد بتجنيدها وتوظيفها قصد مواجهة مشكلة ما في وضعية محددة"2 فالفاعل الثقافي الحديث هو كائن يستوعب الجميع ويتبنى الصيغ التفاعلية الحديثة، ويتيح مساحة وافرة للاندماج بين مختلف الفاعلين لتبقى الساحة الثقافية مكان للإبداع الثقافي.

بالتالي فالكفاية الثقافية تهتم بهوية الشخص وثقافة مجتمعه بهدف جعله ينصهر في قيم واتجاهات هذا المجتمع، بالإضافة إلى جعله شخصا يتقبل الاختلاف والتعدد ولا تحاصره الحدود الترابية والعصبية لأنها وهمية في نظره، بل يتجاوزها إلى العالم الآخر والبعيد، لذلك فهي القدرة الشخصية ومجموعة من "الإمكانات التي يكون الفرد فيها قادرا على تعبئتها بهدف مواجهة وضعية جديدة وهي مكتسبة ولا تتحقق إلا من خلال أفعال ملموسة .3"

إن الفعل الثقافي هو ذات أبعاد أخلاقية يجمع بين ما هو عضوي وما هو شخصي ثقافي، ألا وهي أن كل سلوك فهو سلوك هادف، أي أن الفعل الثقافي لبلوغ هدف أو غاية ما فإنه يختار عدة وسائل وأنماط سلوك متعارف عليها اجتماعيا، والتي تصبح بالنسبة إليه مرجعية يستعملها في مواجهة الأوضاع الجديدة وفق منهجية محددة للوصول إلى غايته، حيث يتضمن الفعل اختيار الفاعل لعدد محدود من الوسائل التي تحقق هدفه دون وسائل أخرى.

يعتبر الفعل الثقافي هو ذلك التساند والصراع والتوافق، فهو إحدى مقومات التنظيم الاجتماعي لذى فعلاقة الفرد وتفاعله مع الآخرين مرتبطة بالكيانات الاجتماعية التي يتواجد بها، حيث تحدد قوة توجيه فعله الاجتماعي نحو مختلف المواقف الاجتماعية التي يواجهها، ومن ثم فإن التفاعل الاجتماعي الثقافي ليس خارج الجماعة ولا ينشأ بدونها، فالتفاعل الثقافي شبكة معقدة من الانفعالات والتفاعلات بين الأفراد، وأن جميع هذه الأفعال والتفاعلات منظمة ومدفوعة بالعضوية الجماعية، مما يترتب عنها أدوار وتوقعات يتعلمها الفرد عن طريق التنشئة الاجتماعية، وبالوسط المدرسي، فالكفاية "تعتمد على دمج للمعرفة التأديبية والتربوية وجعل المتعلم يفهم دور المدرسة كإحدى الوسائط للثقافة، وأيضا البرهنة على الوجود الفكري النقدي للمعرفة التي يتلقاها المتعلم إضافة إلى نسج الروابط بين المعرفة المدرسية وعالم المهن"4.

والخلاصة ينشئ الفرد علاقات اجتماعية من التفاعل الثقافي الاجتماعي الذي يكونه مع غيره، ونتيجة لهذا التفاعل تكون مجموعة من العمليات تمثل في مجملها جملة من المواقف الاجتماعية يكونها الفرد عن الأشياء التي يعيشها مع غيره، وفي البيئة التي يعيش فيها

وعليه ترى هذه المقاربة أن المعاني والرموز، التي يدرجها المجتمع في المنظومة القيمية للفرد، تشكل في الحقيقة المجال الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد وذلك من خلال الرموز والمعاني التي يعطيها الفرد للفعل الثقافي.

2. مفهوم الوسط المدرسي.

تعتبر المؤسسات المدرسية نقطة تقاطع لأنشطة الإنسان الواسعة وهي بذلك نظام اجتماعي معقد تتطلب دراسته منهج علمي رصين ومحكم، لمعرفة العلاقة التفاعلية الدينامية التي تحدث من داخل الوسط المدرسي، فالمدرسة ظاهرة اجتماعية مكثفة بمكوناتها ووظائفها. ومن هذا الغموض والتعقيد فإن للمدرسة، تعريفات متعددة حسب تباين الاتجاهات النظرية في مجال علم الاجتماع التربوي، فنجد هناك من يذهب الى تبني المنهج النظمي في تعريف المدرسة أي باعتبارها نظام اجتماعي وهناك تارة أخرى من يؤكد على وظيفتها.

ينظر أصحاب المنهج النظمي الى المدرسة بوصفها مؤسسة اجتماعية معقدة مستجمعة، في ذاتها لمنظومة من العلاقات المتبادلة بين مختلف جوانبها، وأنه لا يمكن إحداث التغيير في أحد أجزائها دون التأثير في بنيتها الكلية، وفي هذا السياق يعرف فرديناند بوسيون (Ferdinand Buisson) المدرسة بأنها، "مؤسسة اجتماعية ضرورية تهدف إلى ضمان عملية التواصل بين العائلة والدولة، من أجل إعداد الأجيال الجديدة ودمجها في إطار الحياة الاجتماعية، ولا يخرج أرنولد كلوس (Arnold Clausse) في رؤيته للمدرسة بوصفها "نسقا منظم من العقائد والقيم والتقاليد، وأنماط التفكير والسلوك التي تتجسد في بنيتها وفي ايديولوجيتها الخاصة"5. حيث يتم اكتساب المعايير التي تحدد لهم أدوارهم المستقبلية في الحياة الاجتماعية، ويمكن النظر إلى المدرسة كما يرى فريدريك هاستن (Frederick Hasten)"بأنها نظام معقد من السلوك المنظم، الذي يهدف إلى تحقيق جملة من الوظائف في إطار النظام الاجتماعي القائم"6. أي أن المدرسة عبارة عن مجتمع مصغر ومركب في نفس الآن، له ثقافته الخاصة والمتنوعة تؤثر في سلوك وعمل التلاميذ بطرق مختلفة.

تمثل التعريفات السابقة التحديدات النظمية التي تنظر إلى المدرسة بوصفها نظاما تربويا اجتماعيا لكن من جهة أخرى، نجد البعض يؤكد على دور وأهمية المدرسة، وهم يركزون في هذا التوجيه على ما يجب أن تكون عليه المؤسسة وليس على واقع المدرسة كما هو كائن، وينضوي في دائرة هذا التوجيه التعريف النموذجي الذي يقدمه جون هولت (John Holt) فالمدرسة في نظره يجب أن تكون "المكان الذي يجد فيه الناس ما يرغبون فيه، والمكان الذي يساعدهم في تطوير القدرات والاستعدادات التي يرغبون تطويرها"7.

والخلاصة فالمدرسة نظاما معقدا ومكثفا ورمزيا من السلوك الإنساني المنظم، الذي يؤدي بعض الوظائف الأساسية في داخل البنية الاجتماعية، وهذا يعني أنها تتكون من السلوك والمعايير والقيم والتفاعلات الاجتماعية والتربوية في داخلها وخارجها نفسه، وهي أفعال تتصف بالتنظيم وتؤدي إلى إعادة إنتاج الحياة الاجتماعية ثقافيا وتربويا.

إن الحديث عن المدرسة هو حديث استفاض فيه الكثير منذ أزمنة بعيدة مع العديد من المفكرين والفلاسفة كل من اتجاهه وتصوره، إذ تبقى تلك المؤسسة المركزية والمحورية في المجتمع، كما أنها "قاعدة لبناء وترسيخ وتغيير التنظيمات وتوسيع مجال الروابط الإنسانية لتتخذ بعدا وظيفيا مجاوزا للعلاقات الإثنية الضيقة"8، فمنها يمكن بناء المجتمع ومنها أيضا يمكن أن ينهار هذا الأخير، فهي ذلك الوسط الذي تجتمع فيها كل الانتماءات الثقافية وإن كان البعض يرى بأنها تخدم الإيديولوجية السائدة وأنه هناك رأسمال ثقافي هو الآخر متحكم في مجرى وسير المجتمعات، بذلك تكون المدرسة "ضامنة لامتيازات الرأسمال الثقافي ومعيدة إنتاجه عبر

اصطفاء صفوتها لتكون الناطقة بمنطقها والمترجمة لمعقوليتها ثم عبر تبني خطاب علموي تكنوقراطي محايد واحتكاره، يجد أسسه في اعتبار المؤسسة المدرسية هي المجسدة للعلم والباثة له والساهرة عليه"9، وبهذا فهي ليست عادلة لكل فئات الشعب التي تقصدها من أجل التعلم والتربية.

المحور الثاني: المدخل الثقافي لتطوير كفايات المتعلمين بالوسط المدرسي

تعتبر الثقافة ذلك المناخ الوظيفي المندمج في مكونات العمل المدرسي، والذي ينبغي التحكم فيه لضمان مناخ سليم إيجابي، وللثقافة تأثير أيضا على المناخ التنظيمي السائد في المؤسسة المدرسية فهو يتأثر بنتائج التفاعل وبالآثار المتبادلة بين مختلف مكونات النظام التربوي، الإداري، الأكاديمي والخدماتي. إن الوعي بمكانة الثقافة في حياتنا (أفراد ومجتمعات) يجعلنا ندرك بأهمية المدرسة كمؤسسة تربوية تلج إليها الثقافة من أفراد المجتمع، ومن هنا تبدو علاقة الثقافة بالتربية وثيقة الصلة هذا ما يجعلنا نطرح التساؤلات التالية:

- ما مفهوم الثقافة؟ وماهي مقارباتها؟
- بأي معنى نتحدث عن الثقافة المدرسية كمدخل في تطوير الكفايات الثقافية للمتعلمين بالوسط المدرسي؟

1. إشكالية الثقافة: المفهوم والمقاربات

شغل سؤال الثقافة فكر السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين منذ سنوات عديدة، وأصبح ينظر لها من زوايا كثيرة، ولايزال لحدود اللحظة غامضا رغم ما ردد بأنها لحظة ما بعد الطبيعة، ولأنها كذلك فهي "طريقة في معرفة الأشياء وإدراكها عبر إنتاج صور ذهنية لها غاية"10، حتى أن هذا المفهوم أنتجت حوله عمارة معرفية متشعبة، فالثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع أي بوجود عناصره المتمثلة في الأفراد، وهذا المجتمع لا يستمر إلا بالثقافة، وما دامت هذه الأخيرة انعكاسا للوجدان الفردي والجماعي داخل مجتمع ما، وتجسيدا للمعارف المتداولة في أوسع نطاق، فإن الظاهرة الثقافية هي "انعكاس موضوعي للقيم الجماعية في نشوئها واشتغالها وتحولها وصراعها حيث تتدخل الفاعلية الإنسانية في أبعادها المتعددة لبلورة النسيج القيمي والتصرف فيه وفقا للأغراض المنتظرة من وراء هذه الفاعلية"11، وعليه فإن الثقافة طريق خاص ومتميز لحياة الجماعة. بأي معنى؟

ورد المفهوم اللغوي لمادة "ثقف" في لسان العرب كما يلي "ثقف الشيء ثقفا وثقوفا أي حذقه، رجل ثقف أي حاذق الفهم ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم12، وتعود جذور كلمة culture)) إلى لفظين لاتينين وهما (cultura) التي تعني حرث الأرض وزراعتها (agricultura) ولفظ (coler) الذي يحمل مجموعة من المعاني كالسكن، التهذيب، الحماية والتقدير إلى درجة العبادة ((les cultes ثم أخذت هذه الكلمة تتوسع في اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية لتشمل تنمية الأرض بالمعنى المادي أو الحسي، وتنمية العقل والذوق والأدب بالمعنى المعنوي، ثم طورها فلاسفة العصور الحديثة فأصبحت تعني مجموعة عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات.

غني عن البيان القول إن كلمة ثقافة ترتبط في أذهاننا بشؤون الفكر العامة، "فاللكلمات تاريخ وهي أيضا إلى حد ما تصنع التاريخ"13، وكذلك بالنسبة لكلمة ثقافة، فإذا أردنا أن نفهم المعنى الراهن لمفهوم الثقافة كان من الضروري تركيب صيرورته الاجتماعية، فاللسان الفرنسي كانت لديه الثقافة لفظا قديما في عام 1700(ميلادية)، منحدرة من (cultura) التي تعني العناية الموكولة للحقل وللماشية، وذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة، في بداية القرن السادس عشر (الميلادي) كفت الكلمة عن المعنى

القديم وأصبحت تعني فلاحة الأرض، غير أن هذا المفهوم لم يحظ باعتراف أكاديمي، وظل بذلك المعنى السائد حتى منتهى القرن السابع عشر(الميلادي).

كان للحركة الفكرية في القرن الثامن عشر(الميلادي)، دور مهم بحيث بدأت الكلمة تفرض نفسها في معناها المجازي، فتم إدراجها في قاموس الأكاديمية الفرنسية (dictionnaire de l'académie française) فأصبحت بذلك مضافة إلى فعل معين، وهكذا كان يقال ثقافة الفنون، ثقافة الأدب، ثقافة العلوم، إذ كان من الضروري أن يحدد الشيء المعتنى به تثقيفا. تدريجيا بدأت الكلمة تتحرر من متمماتها المضافة منفردة للتدليل على "تكوين" "الفكر" "التربية"، ومع مرور الوقت انتقلت "الكلمة بوصفها فعلا إلى ثقافة بوصفها حالا (حالة الفكر)" 14، فكان مفكروا عصر الأنوار يتصورون بذلك الثقافة كخاصية مميزة للجنس البشري، وظلت مستخدمة في فلسفة الأنوار إلى حد اعتبرت ايديولوجيا الأنوار كليا، إذ اقترن اللفظ بأفكار التقدم والتطور والتربية والعقل وكانت كلمة ثقافة تحظى بنجاح كبير كالذي تعرفه كلمة حضارة، فأصبح ينظر للثقافة كتقدم فردي والحضارة كتقدم جماعي.

الثقافة والحضارة (Culture et Civilisation) حتى وإن كانتا تنتميان إلى الحقل الدلالي نفسه ولكن ليستا مترادفتين تماما، إذ سرعان ما تحولت لدى الفلاسفة الإصلاحيين إلى تهذيب الآداب فكان غرض المفكرين البورجوازيين الإصلاحيين يعوز النفوذ السياسي، بتحويل كلمة حضارة إلى أنها تجويد للمؤسسات والتشريع والتربية التي يمكن عليها بناء الدولة. فكانت بذلك الحضارة قوية الصلة بهذا التصور التقدمي للتاريخ، إلى الحد الذي دفع بمن أبدى حيال المفهوم تشككا شأن جون جاك روسو (Jean- jaques rousseau) وفرانسوا فولتير (François voltaire) وتفادي استخدام بذلك هذه الكلمة، فلم يكونوا قادرين بفعل أقليتهم على فرض مقصد آخر لها أكثر نسبية.

إن الثقافة لم تكتسب معناها الفكري في أوروبا إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر(الميلادي)، بحيث اتخذت منحنى يعبر عن التكوين الفكري عموما، وعن التقدم الفكري للشخص خاصة. هذا هو المعنى الموجود في المعاجم الكلاسيكية، ولكن انتقال الكلمة إلى الألمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أكسبها لأول مرة وقبل رجوعها إلى فرنسا مضمونا جماعيا، فقد أصبحت تدل على التقدم الفكري الذي يتحصل عليه الشخص بصفة عامة، أما الجانب المادي في الأشخاص والمجتمعات أفردت له الألمانية كلمة حضارة، ومع ذلك فان مفهوم الثقافة سوف يمر بتحول آخر عند انتقاله من اللغة الألمانية إلى اللغة الإنجليزية، بحيث "وصلت الأنثروبولوجيا في الولايات المتحدة إلى الذي عرفت فيه نفسها كعلم للثقافة" 15.

تناول العلماء مفهوم الثقافة بتعاريف مختلفة، حسب تخصصاتهم واتجاهاتهم الاجتماعية والمعرفية وتوجهاتهم الفكرية المسايرة للتقدم الفكري والحضاري، وبناء على ذلك فقد جاء مفهوم الثقافة على شكل مجموعة من الآراء والأفكار. مثلا نجد العالم الأنثروبولوجي إدوارد تايلور16 (Edward Burnet Tylor) يعتبر الثقافة بأنها "ذلك المركب الذي يشتمل على المعرفة والفن والأخلاق والقانون... وغيرها من القدرات، العادات والامكانات المادية وغير المادية التي يحصل عليها الفرد باعتباره عضو في المجتمع"17، وعرفها رالف لينتون18 (Ralph Linton) بأنها كل "مركب يشمل على ما صنعته يد الإنسان، وعلى المعتقدات والفنون والعادات التي يكتسبها الفرد، وكل ما ينتجه من الأشياء التي يتخذها الأفراد والجماعات، لتلبية حاجاتهم الحياتية وتحقيق أهدافهم"19.

إن هذه اللمحة التاريخية عن تطور مصطلح الثقافة يساعد في تحديد المفهوم الذي أخذ من اللغة الفرنسية ثم أعيدت ترجمته من اللغة الألمانية إلى اللغة الإنجليزية، وكان يضاف إليها في كل مرة مضمون جديد سواء بطريق التعميم أم بطريقة القياس، دون أن يفقد معناه الأصلي وإنما يكسب معاني جديدة تكون دائما أكثر بعدا عن المعنى الأول. إذا فالثقافة التي تحيل على لفظ المثقف في خطابنا

المعاصر، ليست كما يفهم معناها في اللغة الأوروبية القديمة والخطاب العربي القديم، لقد تطور استخدام الكلمة إلى أن اصبحت مفهوما له دلالات معرفية خاصة وأبعاد فكرية متعددة. لا شك في أن أقدم تعريف وأكثر شيوعا حتى الآن هو تعريف الأنثروبولوجي الإنجليزي إدوارد تايلور (Edward tylor) ومنذ ذلك الحين طرحت العشرات من التعريفات، بحيث أصبحت القائمة طويلة جدا ويمكننا أن نقول أنها تجاوزت أكثر من مائة وستين تعريفا ونوجز لذلك بعض التعريفات للذكر لا للحصر:

تعريف غي روشي (Guy rocher)20 أكثر شمولا وعمقا: "الثقافة هي مجموعة من العناصر لها علاقة بطرق التفكير والشعور والفعل وهي طرق صيغت تقريبا في قواعد واضحة والتي اكتسبها وتعلمها وشارك فيها جمع من الأشخاص"21 ومن الواضح أن هذا التعريف استعان بصيغة إميل دوركايم22 (Emile Durkheim) (طرق التفكير والشعور والعمل).

التعريف الماركسي: "الثقافة كل القيم المادية والروحية ووسائل استخدمها ونقلها التي يخلقها المجتمع من خلال سير التاريخ"22 أهم ما يميز هذا التعريف أنه يرى الثقافة كظاهرة تاريخية فيعطي تعبيرا ماديا وظيفيا للثقافة

تعريف كروبير وكلوكهن23: "الثقافة تتكون من نماذج ظاهرة وكامنة من السلوك المكتسب والمتنقل بواسطة الرموز"24 من هنا تبرز النظرة السيكولوجية والبنيوية للثقافة، وتظهر الأولى من قولها الثقافة مكتسبة، والثانية من خلال نظرتها للثقافة كنماذج من السلوك.

إن قدرة الإنسان على إنتاج الثقافة أهم خاصية تميزه وينفرد بها على باقي المخلوقات، فالتقاليد والعادات ومختلف التجارب التي تشملها الحياة الإنسانية، والتي يمر بها وتستقر في نفوسه هي ما يتحول إلى قيم وأفعال يتوارثها المجتمع من جيل إلى جيل آخر، على سبيل الذكر الأعراف والقوانين التي تحكم الأفراد أو القيم والقواعد التي تحدد طبيعة العلاقة بين بعضهم البعض.

2. تأثير الثقافة المدرسية في إنماء كفايات المتعلمين بالوسط المدرسي.

لعبت المدرسة تاريخيا دورا مهما في بناء شخصية الانسان بكل مقوماتها الأخلاقية العقدية والسلوكية، فكان أن لوحظ منذ القدم بأهمية المؤسسة المدرسية في بناء ثقافة الفرد، من خلال ما تقدمه التربية من مناهج وبرامج ومعايير تقويم وقياس، ومن خلال تلك العلاقة الديناميكية التي تتشكل في البنية التربوية بين مختلف الشركاء والفاعلون، ولأن المدرسة تعد من البنيات الأساسية للمجتمع، فينبغي إذن النظر إلى كل تطور في عمل أنه يمثل مساهمة في تحول المجتمع ذاته، "فالمدرسة تشكل نظاما حيويا متكاملا ومتفاعلا من العناصر والديناميات والمفاهيم والوظائف"25، وعلى هذا الأساس، فالمؤسسة المدرسية تقدم نفسها كنظام مركب ومعقد تكمن أهميته في اعتباره تكوين فكري واجتماعي تربوي، وكرؤية يعبر من خلالها على النظرة المستقبلية. فما المقصود بالثقافة المدرسية؟

إذا كانت لكل مؤسسة ثقافتها الخاصة بها، فإن المؤسسة المدرسية تكمن ثقافتها في "التقاليد والقيم والمبادئ التي تصف لنا التفاعل الإنساني من داخل هذا الوسط، فالثقافة المدرسية منظومة من القيم والمعايير والمعتقدات والممارسات..."26 التي تكونت داخل مجتمع المؤسسة بين مختلف الفاعلين والشركاء (مدرسين، إدارة، متعلمين) عن طريق مواجهة التحديات والمشاكل المطروحة في الوسط المدرسي، وهي"منظومة تتكون من التوقعات والقيم التي تشكل طريقة تفكير الناس ومشاعرهم وتصرفاتهم في المدرسة، وهذه التأثيرات هي التي تجعل المدرسة بيئتها الداخلية وذلك بأهدافها، هيكلها، مناهجها، نظامها التعليمي وأسلوبها وفرادة خصوصيتها."27 فيستخلص بذلك أن الثقافة المدرسية ((**la culture scolaire** هي مجموعة من القيم، السلوكات، الأفعال والتقاليد التي تشكلت داخل المؤسسة المدرسية، وهي أيضا تلك النماذج المنقولة عبر الأجيال من الاحتفالات، المبادئ، الأساطير والمعتقدات تفهم بدرجات مختلفة من قبل أعضاء المجتمع، إذن فالثقافة المدرسية منظومة ديناميكية لأنها "ترسم المسارات المتنوعة

لمختلف المعارف المتداولة في الوسط التربوي، ولأنها تسمح ببروز وتوسع انشغالات المجتمع بالمدرسة وتحكم ردود أفعاله إزاء المنتوج الثقافي المدرسي، ناهيك عن امتلاء هذه المنظومة بمحتويات معبرة عن الرموز المتداولة وعن القوى الاجتماعية والفكرية المسؤولة عن حياة هذه الرموز وتوسعها أو عن تراجعها وحلول رموز مغايرة مكانها"28، وتخضع هذه الثقافة أساسا لعاملين وهما الثقافة العامة للمجتمع والفلسفة التربوية التي تحدد المنهج والأهداف التربوية المقررة من طرف الوزارة الوصية.

إن المدرسة تحتضن أنماطا ثقافية كثيرة، وذلك لوجود ثقافات متعددة في المجتمع، فالمغرب على سبيل المثال غني بروافده الثقافية ومزيج من الانتماءات الثقافية (أمازيغ، عرب، حسانيين، يهود)، الأمر الذي "يخلق أمام المتمدرسين حواجز يصعب عليهم تخطيها بحكم انتمائهم الاقتصادي وأصولهم الاجتماعية والثقافية، منحدرون من مجتمع ريفي أو حضري، نوع التربية والثقافة واللغة المكتسبة قبل ولوج المدرسة، وأثناء عمليات التمدرس، الإمكانات التي تدعم هذا التمدرس... فلا يشكل الوسط الأصلي للطلبة المحظوظين مصدرا لعاداتهم وخبراتهم ومواقفهم"29، وباعتبار المؤسسة المدرسية تتعاطى لهذه الانتماءات، كانت بالضرورة أن يكون لها الدور البارز في كيفية التعاطي معها بإنصاف وعدالة دون إقصاء لأي مكون معين، من خلال انتقاء الأخلاق والقيم والممارسات التي وجب أن يصطدم بها المتعلم، والتخلي بذلك على الأشكال الغير الأخلاقية الأخرى، والقضاء على البيروقراطية الثقافية عبر تكريس لمبدأ الديمقراطية المدرسية. فهي ليست فقط مكان تجتمع فيه الناشئة لتلقي المعارف الخالصة إذ سنكون أمام ثقافة عالمة. لكن الأساس من التربية المدرسية هو اختزال لكل الثقافات في علبة واحدة مهمتها ربح أفراد نموذجيين يقرون ويعترفون بحق الانتماء الثقافي، مناهضين لكل السياسات العنصرية والتمييز المجتمعي، سواء في البنية التي يعشون فيها أو خارجها30 عندئذ سيكون لنا الحق في الحديث عن المثاقفة والاعتراف بالآخر كواحد منا وليس بغريب عنا.

فالمدرسة ليست مصنوعة من المعرفة الفكرية للتدريس فقط، وإنما مكان "مغلق للتعايش وفقا لقواعد اللعبة والطقوس: قيم التنظيم واحترام المساحات والأشياء المشتركة في التفاعل اليومي، ولو أنها تكون نخبوية في كثير من الأحيان عن غير قصد، ولصالح تعزيز اجتماعي لثقافة النخبة التي تطمح للتميز عن المشترك"31 ووفقا لجيروم برونر(Jerome broner)" التعليم هو المحاولة المعقدة للتكيف لاحتياجات أعضائها، وتكيف أعضائها وطريقة تعلمهم لاحتياجات الثقافة"، وبعبارة أخرى فإن فكرة ثقافة المدرسة تعطي هنا المعنى المزدوج، وهو كخطوة أولى ثقافية تربوية للتكيف مع احتياجاتنا، وفي خطوة ثانية تلبية احتياجاتنا لهذه الثقافة. ومن خلال هذه الخاصية المعقدة للتعليم يظهر ان النظام التعليمي لم يعد لديه تصور واضح للثقافة ليتم نقله، ربما لأننا بين "مفهوم نخبوي للثقافة وتصور أنثروبولوجي لها، وبالتالي عدم التوافق بين معاني المفهوم، فمن وجهة نظر نخبوية كونها ثقافة الطبقة المهيمنة، أما من وجهة نظر أنثروبولوجية هي معرفة الحياة اليومية"32، وبالعودة إلى الثقافة المدرسية قد يكون لنا في تعريفها إطار وتصور أكثر وضوحا قائم على ثنائية:

اللغة: المكون الرئيسي للتراث الثقافي والذي يكون إتقانه أساسا للوصول إلى مجالات من المعرفة والثقافة العالمية.

التاريخ: المكون الأساس لأي مجتمع بحيث لديه معرفة تضيء الحاضر والمستقبل.

إن الوسط الثقافي للمدرسة يتحدد من جملة من المتغيرات الثقافية، وبداية فمن اللازم ان نميز بين وظيفة المدرسة التربوية ووظيفتها العلمية، إذن فالمدرسة قبل كل شيء هي مؤسسة تربوية تكمن في إعداد الأجيال وتربية الناشئة، والثقافية المدرسية أنواع:

✓ الثقافة المدرسية الرسمية: يقصد بها كل ما يتضمنه الحقل المدرسي بإنتاجه وإعادة إنتاجه من قيم ومعارف، اتجاهات، خبرات، تصورات، علاقات، تفاعلات وأنظمة رمزية وأشكال فكرية، كفايات ونماذج ثقافية، أشكال السلوك والممارسات والأفعال،

العواطف والإحساس ... التي يتم انتقاؤها وتأطيرها، ومن ثم التشجيع عليها للأخذ بها بشكل رسمي وعلني، من قبل نظام تعليمي محدد وهو ما يعرف بالعملية التنشئوية، باعتبار "المدرسة حقل رسمي مؤسسي يوجه ويؤطر حياة المتمدرسين"33 وهي ما يسمى بالعملية التفاعلية التي تتحقق بين المتعلمين والفاعلون التربويون في إطار وضعية تنشئوية خاصة، ذات طبيعة مركبة لها صبغة رسمية ومؤسسية. من هنا فهي حقل مركب، الهدف الأساسي منه والمصرح به هو تحقيق أهدف تربوية وتعليمية، يكون القصد منها تنشئة المتعلمين وتربيتهم، تعليمهم، وتكوينهم وفق نماذج ثقافية محددة ذات صبغة مؤسسية وذات طبيعة مركبة وهجينة، تؤطر بكيفية قصدية مجموع الاختيارات التعليمية والتربوية والايديولوجية والسياسية وكذلك القيمية والسلوكية التي تعمل على تربيتها للمتعلمين.

✓ الثقافة المدرسية اللامؤسسية: تنتج بشكل عفوي من داخل الحقل المدرسي وذلك عبر عمليات التأثير والتأثر التي تحدث بين الفاعلين المدرسيين، إذ "تشمل هذه الثقافة المنتجة بدورها القيم والمعايير والأنماط الثقافية والاجتماعية والأخلاقية، التي تنتشر في وسط مدرسي غير قصدي وبعبارة أخرى بشكل غير رسمي مما سيؤدي إلى ظهور نسق قيمي لا شكلي"34. هنا يمكن الفرق بينها وبين الثقافة المدرسية الرسمية التي لها وظيفة رسمية وقصدية، في إنتاجها إلا انه يمكن رغم ذلك أن تجد تقاطعات وتكامل بينهما على مستوى بعض أوجها المشتركة، وتجدر الإشارة إلى أن قوة تأثير الثقافة المدرسية اللامؤسسية في المجال المدرسي لا تقل أهمية عن قوة تأثير البعد المؤسسي الرسمي لهذه الثقافة.

فلمضمون الثقافة المدرسية أبعادا وجوانب متعددة غير أنها تتمحور حول بعدين أساسيين: "(البعد المعرفي والبعد الاجتماعي_الايديولوجي)، ذلك أن كل خطاب مدرسي يتضمن مجموعة من المعلومات والمعارف والمعطيات حول وقائع وأحداث ومواضيع مختلفة. كما يحمل بشكل أو بآخر وبقدر أو بآخر بعض معالم التوجهات الفكرية والسياسية والاجتماعية للنظام القائم."35

خاتمة

خلاصة تعتبر الثقافة موروثا إنسانيا ماديا أو غير مادي اكتسبه الفرد ممن سبقوه وعلموه على تلك القيم، المعايير، الفنون والسلوكات ويتم ذلك بواسطة اللغة التي تعتبر وعاء الثقافة التي تنتشر بها وتضمر بدونها، كما يمكن للإنسان أن يكتسب المزيد من الثقافات بواسطة الاحتكاك والممارسة مع بقية بني البشر، فيأخذ منهم ويعطي لهم، وقد يسمح بإدخال ثقافة جديدة في مجتمعه ويتبناها بذلك المجتمع، كما قد يزيح شيئا من ثقافته والتي يعتقد أنها غير مواكبة للعصر والمجتمع. فالمدرسة بمثابة الوعاء الثقافي الذي ينقل تراث الأمة وقيمها وأخلاقها، فكان من الضروري أن تكون المدرسة محتضنة للثقافة المجتمعية عبر أخذ ما يصلح منها وترك ما هو غير صالح أثناء تلقين الأبعاد الثقافة للمتعلمين، كما أن نجاح المتعلمين في المدرسة لا يتوقف على مدى تمثلهم للجانب العلمي في ثقافة المدرسة فحسب، وإنما مدى قدرتهم على تمثل معاييرها السلوكية وفي تشربهم لقيمها الثقافية فالمدرسة بيئة نفسية واجتماعية قبل أن تكون بيئة معرفية.

الهوامش:

1 الحسن اللحية، موسوعة الكفايات –الألفاظ والمفاهيم والاصطلاحات–، منشورات مركز حقوق الناس، الطبعة الأولى 2006، ص143.

2 العربي السليماني، المعين في التربية، مطبعة النجاح، طبعة 2009، ص84.

3 نفسه، ص84.

4 Sylvain Manseau et Olivier Dezutter, « La compétence culturelle en formation initiale des enseignants de français au secondaire : état d'une expérience à visée intégrative, Vol 33, N2, 2007, p305-320 , cet article est publié le 1 février 2007 via le lien suivant : https://www.erudit.org/fr/revues/rse/2007-v33-n2-rse2173/017878ar

5 علي أسعد وطفة وعلي جاسم الشهاب، علم الاجتماع المدرسي "بنيوية الظاهرة ووظيفتها الاجتماعية"، منشورات كلية علوم التربية (الكويت)، الطبعة الأولى 2003، ص17.

6 نفسه، ص18.

7 نفسه، ص19.

8 محمد ياسين، الثقافة المدرسية وتكوين المدرسين، "المسألة التعليمية في المغرب: أسئلة الثقافة والمؤسسة والتكوين التربوي"، منشورات وليلي، دفاتر المدرسة العليا للأساتذة بمكناس، مجلة بيداغوجية وثقافية، العدد 15، فبراير 2010، ص18.

9 بيار بورديو وجان كلود باسرون، إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة ماهر تريمش، مراجعة سعود المولى، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت (نونبر)، 2007، ص71.

10 عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكالات...من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، (بيروت) 2006، ص19.

11 محمد ياسين، م.س.ص.10.

12 جمال الدين محمد بن مكتوم بن منظور: لسان العرب، مادة "ثقف"، نصه خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث، الجزء الثاني، الطبعة الأولى 2008، صص102.101.

13 Philippe Bénéton, Histoire de mot « culture » et « civilisation »,travaux et recherche de science politique :35 (paris :presse de la fondation nationale des sciences politiques, 1975).

14 دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الإجتماعية، ترجمة منير السعيداني، مراجعة الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت آذار (مارس) 2007، ص18.

15 دنيس كوش، م.س.ص34.

16 إدوارد بيرنت تايلور :(Edward Burnet Tylor) (2 أكتوبر 1883- 2 يناير 1917)، أنثروبولوجي إنجليزي ومؤسس الأنثروبولوجيا الثقافية، حدد سياق الدراسة العلمية للأنثروبولوجيا معتمدا على نظريات التطور لتشارلز ليل، أعاد طرح مصطلح الإحيائية كأساس وظيفي لتطور المجتمع والدين. من أعماله: "الثقافة البدائية والأنثروبولوجيا". للمزيد من المعطيات راجع موقع: https://www.marefa.org، عبر الرابط التالي : https://www.marefa.org/%D8%A5%D8%AF%D9%88%.

17 عبد الغني عماد، م.س.ص31.

18 رالف لينتون:(Ralph linton(27 فبراير 1893- 24 دجنبر 1953)، أمريكي وعالم الأنثروبولوجيا في منتصف القرن العشرين، يعتقد أن مرتبة الشخص الاجتماعية تتكوّن من مجموعة حقوق وواجبات، وهذه المرتبة إما أن يحققها الشخص بمجهوده الخاص وإما أن يحددها له المجتمع اعتمادًا على بعض المميزات كالعمر، أو الأُبوة، أو الجنس. للمزيد من المعطيات راجع موقع، https://www.marefa.org : عبر الرابط التالي .451108/https://www. marefa.org

19 عبد الغني عماد، م.س.ص31.

20 Guy Rocher, né le 20 avril 1924 à Berthierville, est un sociologue, professeur et conférencier québécois. Il est professeur en sciences sociales au département de sociologie de l'Université de Montréal et chercheur au Centre de recherche en droit public, Pour plus d'informations, voir le site web: https://fr.wikipedia.org, https://fr.wikipedia.org/wiki/Guy_Rocher

21 غي روشيه، مقدمة إلى علم الاجتماع العام، ترجمة مصطفى دندشلي، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، (بيروت: مكتبة الفقيه،2002) ج1: الفعل الاجتماعي ص198.

22 دافيد إميل دوركايم (David émile durkheim): (15 أبريل 1858 - 15 نونبر 1917)، فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وقد وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معا. من مؤلفاته: "الأشكال الأولية للحياة الدينية"، للمزيد من المعطيات راجع موقع: https://ar.wikipedia.org ، عبر الرابط التالي: https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D9%85%D9%8A%D9%84

23 عبد الغني عماد، م.س.ص32.

24 اشتهر هؤلاء الأنثروبولوجيين بعملهم ومساهمتهم في تطوير نظرية الثقافة داخل الأنثروبولوجيا الأمريكية وقد شغلا مناصب تدريس هذا العلم في العديد من الجامعات الأمريكية، أنجزا معا دراسة نقدية في عام 1951 حول مفهوم الثقافة بعنوان " A critical review of concept and definitions"، والتي تضمنت ما يزيد على مائة وخمسين تعريفا وردت في مختلف الكتابات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية. للمزيد من المعطيات راجع الموقع عبر الرابط التالي: /الثقافة-و-الإنثروبولوجيا http://www.aranthropos.com .

25 عبد الغني عماد، م.س.ص 33.

26 عبد الفتاح ديبون، أفق المدرسة، الطبعة الأولى، منشورات غرب ميديا، القنيطرة 2003، ص36.

27 عبد الرحيم الحسناوي، الثقافة المدرسية وتكوين المدرسين، "الثقافة المدرسية: مفهومها وأسلوب إرسائها"، منشورات وليلي، دفاتر المدرسة العليا للأساتذة بمكناس، مجلة بيداغوجية وثقافية، العدد 15، فبراير 2010، ص65.

28 نفسه، ص65.

29 محمد ياسين، م.س.ص11.

30 عبد الحق منصف، رهانات البيداغوجيا المعاصرة - دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية-، أفريقيا الشرق 2007، ص162.

31 ديفيد إنجليز جون هيوسون، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة لما نصير، مراجعة فايز الصياغ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، (بيروت، مارس2013)، ص31. (بتصرف).

32 Philippe Perrenoud, "Culture scolaire, culture élitaire?", Faculté de psychologie et des sciences de l'éducation Université de Genève, 1990, In Coordination n° 37, mai 1990, pp21-23. Repris in Perrenoud, Ph.: La pédagogie à l'école des différences, Paris, ESF, 1996, chapitre 1.

33 La culture scolaire: Distance entre culture scolaire et culture familiale La culture scolaire au service de la mobilité sociale ou au service d'une compétition sociale, Les Analyses de la Fédération des Associations de Parents de l'Enseignement Officiel (FAPEO ,Mai 2008), p5

34 محمد الشهب، الثقافة المدرسية وتكوين المدرسين، "علم اجتماع الثقافة المدرسية وأهميته بالنسبة للعمل البيداغوجي"، منشورات وليلي، دفاتر المدرسة العليا للأساتذة بمكناس، مجلة بيداغوجية وثقافية، العدد 15، فبراير 2010، ص91.

35 نفسه، ص92.

36 مصطفى محسن، في المسألة التربوية نحو منظور سوسيولوجي منفتح، المركز الثقافي العربي، شركة بابل للطباعة والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 1992، ص137.